التعددية اللغوية في الجزائر
"السياق السوسيوثقافي للظاهرة"
Multilingualism in Algeria.
"The socio-cultural context of the phenomenon"

كمال بوغديري

جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، **ethnokam1@yahoo.fr**

تاريخ الاستلام: 2021/11/15 تاريخ القبول: 2022/05/04 تاريخ النشر: 2022/05/31

ملخص

يعالج المقال إحدى الظواهر المرتبطة باللغة باعتبارها الوسيلة تعكس بعض مظاهر التغير والتحول في المجتمع رقيا كان أو انحطاطا، تحضرا كان أو تخلفا، ذلك أن اللغة ترتبط بالفكر، ووسيلة تواصل بين أفراد المجتمع ومؤسساته المختلفة. وبين المجتمعات المختلفة، مما يعني لانفتاح على ثقافات الشعوب المختلفة، ليظهر ما يصطلح عليه بـ "التّعدد اللغوي «*(Plurilinguisme)*، وهي ظاهرة شغلت اهتمام الكثير من الباحثين في تخصصات مختلفة، كاللسانيات، واللسانيات الاجتماعية، وع النفس والأنثروبولوجيا... لما يخلّفه من آثار على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية.

كلمات مفتاحية: لغة؛ تواصل اجتماعي؛ صراع؛ تعدد لغوي

Abstract

This article deals with one of the phenomena related to language that reflects aspects of change and transformation of society, whether it is progress or decline, urbanization or underdevelopment, because the language is attached to thought and also means of communication between members of the same society and its various institutions. Also between different societies, which means openness to the different and their cultures linguistic, social linguistics, Psychology and anthropology. Effects on various aspects of social life.

Keywords: Langage; Communication sociale; Conflict; Plurilinguisme.

المؤلف المرسل: كمال بوغديري، الايميل: ethnokam1@yahoo.fr

1. مقدمة

تعد اللغة ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة البشر، وقد منح الله تعالى الإنسان قوة العقل والاستعداد للتفاهم والكلام. واللغة أهم مظهر تعد اللغة هي وسيلة التواصل بين أفراد المجتمع، وهي ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة البشر، وهي أهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها وهي عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع، ونظرا لارتباط اللغة الواحدة ببيئة وبمجتمع معيّن، فإن مفرداتها ونسيجها سيكتسبان مع مرور الزمن خاصية عميقة الأثر في الناطقين بها، فلا تكون المفردات لدلالاتها المعجمية وحسب، وإنما تنطوي على إشارات معنوية خاصة ترتبط بتاريخ الأمة وثقافتها، مما يكسبها عمقا ونكهة خاصة.

أجل؛ لقد تغيرت وظيفة اللغة بين الماضي والحاضر، فبعد أن كانت أصواتاً يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وفقا لما ذهب إليه ابن جني؛ فقد أصبحت اليوم جامعا قوميا يؤلف بين الناطقين بها، ويهبهم شعورا بالانتماء إلى مجتمعها والحضارة التي تنتسب إليها. ولعل أهم ما تتضح عليه صورة الدور الذي تلعبه اللغة في صياغة عقلية الفرد والمجتمع. ما ذهب إليه إدوارد سابير E.Sapir من أن " اللغة تنظم تجربة المجتمع" وهي التي تصوغ عالمه وواقعه الحقيقي، وأن " كل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم". وذهب سابير إلى أن اللغة " أساس تشكيل الأفكار، ودليل على النشاط الفكري للفرد" وهذا هو جوهر نظريتيهما في اللغة، وإن الأمر ليتجاوز ذلك إلى المجتمع ذاته، إذ نجدها الأساس الذي تتبني عليه الهوية الاجتماعية علاوة على الهوية الفردية. ولما كان للغة هذا الدور الخطير في تنميط الحياة البشرة، وصياغتها، وتوجيه مناهج الفكر فإن ذلك يستدعي إحاطتها بمزيد من الرعاية والاهتمام، ويقدم الحلول لكثير من المشكلات العالقة في العالم لاسيما تلك التي تتصل بالتباين الحضاري، حيث أصبحت تشهد تزاحما من طرف لغات أخرى في إطار صراع لغوي مع غيرها من اللغات المجاورة لها أو البعيدة عنها، بحكم التطور والانفتاح الحضاري ورغبة بعض المجتمعات أو الشعوب في فرض لغاتها على حساب لغات أخرى بحكم ما تشهده من تطور علمي وتقني وصار الأفراد في مختلف دول العالم يقبلون على تعلم اللغات الأجنبية، ليظهر ما أصطلح عليه بظاهرة "التعدد اللغوي" Plurilinguistique كأحد ميكانيزمات المنافسة العالمية ويصبح مسألة جوهرية تتجاذبها حقول معرفية مختلفة كاللسانيات واللسانيات الاجتماعية الأنثروبولوجيا اللغوية وعلم النفس اللغوي وغيرها...

إن ما يحدث بين اللغات يشبه إلى حد ما، ما يحدث بين البشر من احتكاك وصراع في سبيل البقاء والسيطرة وهو احتكاك من شأنه أن يفضي إلى تداخل اللغات وتفاعلها وتأثر إحداها بالأخرى، مما وولد ظاهرة التعدد اللغوي في جميع المجتمعات حيث اتخذ شكلين بارزين هما: الثنائية اللغوية والازدواجية اللغوية فما التعدد اللغوي، وما علاقته بالثنائية والازدواجية اللغوية وما انعكاسات ذلك على مجتمعات العالم عموما والمجتمع الجزائري خصوصا؟

2. التعدد اللغوي: Plurilinguisme

تعتبر المجتمعات متعددة اللغات تلك التي يتكلم فيها بلغتين مختلفتين على الأقل ونقول عن شخص ما أنه متعدد اللغات عندما يكون بإمكانه التعبير عن حاجياته ومقاصده لتواصل مع غيره بأكثر من لغة ويمكن إذن لمصطلح التعدد اللغوي **Multilinguisme**، أن يحيل إلى استعمال اللغة أو قدرة الفرد أو على الوضعية اللغوية لمجتمع أو أمة كاملة. (كلين، 2009، ص649)

وعليه فانه يمكن تقديم تعريف للتعدد اللغوي بأنه استخدام لغات متعددة في مجتمع واحد. هو المعنى الذي تم الإشارة إليه " جون ديبو" في قاموس اللسانيات التعدد اللغوي: "عندما تجتمع أكثر من لغة في مجتمع واحد، أو عند فرد واحد ليستخدمها في مختلف أنواع التواصل، والمثال المشهور هو دولة سويسرا حيث الفرنسية والايطالية والألمانية وهي لغات رسمية بها".**(J.Dubois, 1973,P,368)**

فالدولة متعددة اللغات هي التي يتكلم أهلها على الأقل لغتين ويتعاملون بهما، نحو سويسرا أو كندا حيث يتكلم جزء من سكانها الفرنسية، والأغلب منهم اللغة الانجليزية وتوجد أقليات أخرى تتكلم لغات أخرى بنسب ضئيلة متفاوتة.

ويذهب الباحث المغربي " محمد الاوزاغي " إلى تعريف يقارب ما سبق فيقول: (التعدد اللغوي المقابل العربي للفظ الأجنبي **Multilinguisme**، وهو يصدق على سبيل التساوي إذا كانت جميعها لغات عالمة كالألمانية والفرنسية والايطالية في الجمهورية الفدرالية السويسرية، وأما على سبيل التفاضل إذا تواجدت لغات عالمة كالعربية بجانب لغات عامية مثل الهوسا والغورمانشه والسوناي وزارما والتماشيق والفولفولدة والتوبو في جمهورية النيجر). (الأوزاعي، ص 2002)

وغالبا ما يصنف التعدد اللغوي بشكل عام تحت مصطلح " الثنائية اللغوية " وذلك لإمكانية إيجاد فرد يتقن أكثر من لغة وصعوبة وجود مجتمعات يتقن أهلها جميعا أكثر من لغة ويستخدمونها بشكل اعتيادي وبناء على ذلك يرى "مايكل كلين " أن التعدد اللغوي يصعب ضبطه بتعريف معياري يمكن تقبله في الواقع ولأنه حينها يتطلب ممن يصطلح عليهم بثنائي اللغة " الحصول على قدرة متساوية في اللغات واكتسابها بشكل متزامن واستعمالها في نفس السياقات"[1] (كلين، 2009, ص650). وهو أمر كما تعلمون يصعب إثباته بالواقع، ولذلك تميل التعريفات اليوم إلى أن تكون عامة أكثر ومنهجية، واستنادا لذلك قدم تعريفا للتعدد اللغوي كالاتي: (هو استعمال أكثر من لغة واحدة أو قدرة بأكثر من لغة). (كلين، 2009، ص653).

ولا يكاد يخلو مجتمع أو بلد في العالم من التعدد اللغوي سواء لأسباب تاريخية نحو الاستعمار ومخلفاته الثقافية، أم الاقتصادية أم لأسباب حضارية فرضها التقدم و التطور التكنولوجي كما إن الألفاظ تنتقل

وتهاجر مما يؤدي لتداخلها ببعضها و تسربها من لغة أخرى مع مرور الزمن لكن يفترض إن يكون للغة المنشأ و التربية و النصيب الأوفر في فرض أنساقها و أساليبها على اللغة الثانية و يكون هذا التداخل والتعدد اللغوي على مستويات أبرزها المستوى الدلالي الذي نرى أثره كبيرا على اللغة العربية في كثير من مفرداتها، حيث نجد نسبة من الألفاظ والأساليب نقلت للعربية من اللغات الأجنبية نتيجة الاحتكاك بها بسبب الهجرة و التجارة و غيرها .

إلا إن تقلبه يختلف من دولة لأخرى فهناك من اعتبره نعمة له فتشبث به وخطط له ليرفع شأنه من خلال أثاره الايجابية المترتبة عنه حتى صيره التعدد اللغوي من الدول التقدمة وهناك من لم يحسن فهمه والتعامل معه ولا العمل به فكان نقمة عليه زاده تدنيا وتدهورا كحال دولنا العربية. (عمر ديدوح، 2016). وفي العرف اللساني يشير التعدد اللغوي إلى وجود أنظمة مختلفة للتواصل ولكل نظام لغوي خصائص ومميزات تختلف عن النظام اللغوي الأخر نحو ما بين العربية والفرنسية والانجليزية.

فالتعدد اللغوي قضية مركزية ظهرت نتيجة حتمية لتداخل اللغات واللهجات وتنوع الأنظمة اللغوية وأنساقها داخل المنطقة الواحدة، هذا التعدد الذي قد يكون له فضل في اغتناء اللغة ومساعدة المتعلم في تعلمه كما يفرض على المعلم اللغة أن يكون على دراية ومعرفة ضمنية بهذا التعدد لكي ينجح في أداء مهمته على أحسن وجه، كما يمكن أن يؤدي التعدد للبس صرفي ودلالي نتيجة تداخل الأنظمة اللغوية فيما بينهما. (بلفقير، 2016). وعليه فان دراسة التعدد اللغوي يجب إن تتضمن دراسة أنظمة اللغة وأنساقها في الاتصال اللغوي وكذا وظائف اللغة في المجتمع ووضعية الأفراد المتكلمين بأكثر من لغة في المجتمع الواحد لان بينها جميعا علاقات تربطها، ولعل هذا ما جعل كثيرا من المجالات المعرفية تقبل على دراسة التعدد اللغوي نحو اللسانيات والسوسيولسانيات والسوسيولوجيا وعلم اللغة النفسي وعلم النفس الاجتماعي والديموغرافيا. (كلين، 2009، ص658).

إن اشتراك هذه المجالات المعرفية وأكثر في دراسة التعدد اللغوي إلا دليل على الأهمية البالغة التي توليها له الدول المتقدمة، لما يضمه من تنوع بالأنظمة اللغوية فان أحسن استثماره يمكن الاستفادة منه باستغلال ما يوجد في تلك الأنظمة اللغوية من خصائص وأساليب ومميزات وتوظيفها في تدريس اللغة المراد تعليمها بهدف التطور العلمي والحضاري إيمانا منهم بأن التعدد اللغوي معطى حضاري مهم للتقدم العلمي والتكنولوجي. كما إن هذا التعدد اللغوي يعتبر أيضا من أخطر الوضعيات اللسانية على الإطلاق واعقدها (إذ غالبا ما تركب اللغة لتحقيق أغراض سياسية وتتخذ ذريعة لإذكاء نزعات قبلية، وتثبيت هويات إقليمية كالباسكية في اسبانيا والكردية في العراق وتركيا والامازيغيات في الجزائر والمغرب حتى إذا أخذ المجتمع في التصدع أعيد جبره بواسطة لغة السلطة التي يكتب لها الذيوع والانتشار بعوامل ثقافية وسياسية ودينية واقتصادية). (الأوزاعي، 2002، ص،653)

يجب أن نشير إلى وجود مستويين للتعدد اللغوي اجتماعي و رسمي أما الأول التعدد اللغوي الاجتماعي: فهو قائم في المجتمع بحكم الواقع، فينشأ في المجتمع نتيجة عدة عوامل على رأسها الرحلات والهجرات نحو بلدان أخرى فتتكون أقليات تتكلم بلغات غير لغات البلدان التي هاجروا إليها وتنتشر مع مرور الوقت، وكذلك الحدود بين الدول قد تؤثر في ظهور هذا النوع من التعدد والاستعمار بما يخلفه من آثار ثقافية في المجتمع ومنها لغته، وأما التعدد اللغوي الرسمي فتحدده الدولة وتتعارف به رسميا ضمن دستورها، على نحو ما نجده في كندا، إذ هي دولة ثنائية اللغة رسميا لإقرارها بالفرنسية والانجليزية دستوريا، وكذلك الشأن في سويسرا نجدها متعددة اللغة رسميا لإقرار دستورها بذلك، ولذلك فهي تكتب وثائقها الحكومية باللغات الفرنسية والجرمانية والايطالية.

3. أسباب التعدد اللغوي:

من المرجح أن يكون تدفق السكان حول العالم نتيجة الرحلات والهجرات بين البلدان لأسباب متعددة كالتجارة وطلب العلم والهروب من الاضطهاد وغيرها دورا بارزا في تنامي ظاهرة التعدد اللغوي في العالم حيث تزخر البلدان المستقبلة لطوائف متعددة وأقليات أجنبية، تعيش فيها جنبا إلى جنب مع شعوبها، وتحمل معها ثقافتها المتعددة ولغاتها المتباينة. (القاسمي،2008، ص،200) نحو ما نجد في أمريكا وكندا واستراليا وفرنسا ومناطق الخليج العربي، فتدخل اللغات في صراع مع بعضها ينتهي الأخير بتغلب إحداها على الأخرى أو تعايش اللغتين مع بعض دون غالب ومغلوب، والنتيجة حينها تعدد لغوي بمظهريه وتداخل لغوي بمستوياته المختلفة، فلا يمكن للغة الخروج من صراع لغوي مهما كانت نتيجته دون أن يتأثر قاموس مفرداتها اللغوية أو أساليبها في التعبير والنطق من التحريف والتسرب إلى لغة أخرى.

فالهجرة الجماعية سواء كانت لأسباب ثقافية أو سياسية أو اقتصادية أو دينية هروبا من الاضطهاد السياسي أو العرقي أو الديني وحتى هروبا من الفقر والأمراض بحثا عن السلامة والأمن كلها تؤدي لاحتكاك قوي بين اللغات، ينعكس في شكل تداخل لغوي أو ازدواجية أو ثنائية لغوية داخل المجتمعات. كذلك يسهم الغزو العسكري في نشوء الثنائية اللغوية، مثلما حدث في بلدان المغرب العربي، حيث عمل الاستعمار الفرنسي على تهميش اللغة العربية في مقابل ترسيخ اللغة الفرنسية مما نتج عنه ازدواجية لغوية في هذه البلدان.

يسهم العامل الاقتصادي في نشوء الثنائية اللغوية وتنميتها، حيث تستدعي حركات التصنيع في كثير من البلدان استخدام عمال ذوي جنسيات مختلفة تفرض لغتها بطريقة غير مباشرة في أثناء المعاملة.

وقد يكون للعامل الاجتماعي والنفسي دور في ظهور التعدد اللغوي، حيث نجد مثلا الزواج الذي يتم بأطراف من جنسيات مختلفة يكون أو ينتج جيلا من الأطفال ثنائي اللغة، بحيث يتعلم الأبناء لغة الأم والأب معا، وحتى الزواج بين طرفين من مجتمع واحد لكن من منطقتين مختلفتين يؤدي إلى ظهور ازدواجية لغوية تسبب للطفل فيما بعد تداخلا لغويا حين تعلمه بالمدرسة، وأما العامل النفسي فيظهر اليوم بوضوح ويتمثل في

فقدان الثقة في اللغة الأم، نتيجة فقدان الثقة في النفس، وهو حال بعض الطلبة الذين يشعرون بالاعتزاز عند استخدامهم الألفاظ الأجنبية لأنها لغة الغرب القوي والمتحضر والمتفوق، بينما يرون في العربية لغة الدول الضعيفة والمتخلفة، ولعل ضعف الدول العربية هو ما ولد في نفوس أهلها الشعور بالتخلف عند التحدث بلغتهم الأم، والحق أنهم لا يتكلمون لغة أجنبية سليمة ولا عربية فصيحة، وإنما نتيجة هذه الثنائية للغوية، والتداخل صارت اللغة اليوم عند الكثيرين هجينا لا هو عربي ولا هو بالأجنبي.

ولعل العامل الأخطر هو العامل التربوي، حيث يسهم التعليم في انتشار ثنائية لغوية، فإذا كان التعليم في كافة مراحله يتم باللغة الأم لأسهم ذلك في نهضت اللغة وتطورها وانحصرت اللغات الأجنبية، والملاحظ أن كثيرا من التخصصات في التعليم الجامعي في كثير من البلدان العربية مثلا تدرس بلغات أجنبية ولاسيما التخصصات العلمية، حيث تعتمد اللغة الانجليزية أو الفرنسية في التدريس مما يجبر الطالب على الثنائية في استعمال المفردات والمصطلحات بلغة غير لغته الرسمية بالإضافة إلى اصطدام الطالب بمصطلحات لا مقابل لها في العربية دون وجود محاولة لتعريبها.(وليد، 2007، ص، 106-107)، إضافة إلى بعض الأسباب تتعلق بالإعلام بأصنافه المختلفة وما يلحظ فيه في كثير من الأحيان من خروج عن اللغة الأم إلى لغات أجنبية وعامية باعتباره الأفضل والأقرب لجذب للمتلقين. فإذا كانت هذه أبرز الأسباب لظاهرة التعدد اللغوي، فما الذي يميز الوضع اللغوي بالجزائر في ظل ما سبق طرحة؟

4. سمات الوضع اللغوي بالجزائر:

يكتسي الوضع اللغوي في الجزائر طابع التعددية اللغوية وإن لم يقرها الدستور بصفة رسمية، أنها موجودة بحكم الواقع، حيث تدرس اللغة العربية والامازيغية، والفرنسية، والانجليزية والاسبانية والألمانية في بعض المناطق.

لخص الباحث لويس "جون كالفي" L.J.Kalvier الوضع اللغوي ببلدان المغرب العربي ومنه الجزائر، بوجود أربع لغات مستخدمة بتفاوت لأداء وظائف شديدة التنوع و هذه اللغات هي العربية الفصيحة و الفرنسية واللغة الأم التي تنقسم الى لغة امازيغية في بعض المناطق و لغة عامية قريبة إلى الفصحى في مناطق أخرى، وهو كلام نقل عن "جيبلبير غرانغيوم " Gilbert Grandguillaime في كتابة عن التعريب والسياسة اللغوية في بلدان المغرب يقول : (تستخدم في بلدان المغرب الحالي ثلاث لغات، العربية و الفرنسية و اللغة الأم أما الأولان فلغة الثقافة، و هما لغتان مكتوبتان، وتستخدم الفرنسية أيضا لغة للمحادثة غير أن اللغة الأم الحقيقية التي يستخدمها الناس دائما في خطابهم اليومي لهجة هي العربية أو البربرية و ليست هذه العربية أو البربرية وليست هذه اللغة الأم إلا في حالات نادرة جدا، لغة مكتوبة (كالفي،1998، ص،89)

وموقع هذه اللغات في الجزائر مختلف جدا ومتفاوت، ولكن يظهر أنه يوجد تعدد لغوي واضح بالجزائر ومفروض بحكم الواقع سواء تم الاعتراف به أم لا من قبل الجهات الرسمية، فالواقع اللغوي الجزائري يوضح

أن درجة استعمال اللغات في ليس متماثلا، حيث تهيمن العاميات على السوق الشفوية وتحقق تواصلا بين المجموعات اللغوية المختلفة، أما اللغة العربية الفصيحة واللغة الفرنسية فلا تستعملها إلا طبقة من المتعلمين والمثقفين وفي أماكن واضحة نحو المدارس والجامعات والأماكن الإدارية، كما أن الأمازيغية لها تأدياتها المختلفة من منطقة لأخرى، وقد يوجد بينها اختلافات واضحة منها "الشاوية" و"الشلحية" والقبائلية" المزابية" و"التارقية" ...

فالوضع اللغوي في بلادنا تسوده لغة عربية فصيحة هي اللغة الرسمية للدولة وتختلف عن اللغة الأم المكتسبة بالبيت ثم الفرنسية وهي لغة موروثة عن الحقبة الاستعمارية وكانت لفترة طويلة اللغة الرسمية للبلاد ثم أصبحت أجنبية بعد سياسة التعريب التي انتهجت بعد الاستقلال وهي اليوم حكر على الطبقة المترفة والمثقفة وعلى مستوى السلطة والمسؤولين، هي مظهر من مظاهر الرفاهة والرقي عندهم، يضاف لهذا لغات القبائل والشاوية والمزابية التي تتكلم بها فئة معتبرة من المجتمع الجزائري في مناطق محددة. وعليه فالفرد الجزائري بين كل هذا يعيش وهو مزود بنسق لغوي خليط لما يحمله من مظاهر الازدواج اللغوي والثنائية اللغوية.

أما الازدواجية فتربط اللغة الفصحى بالعامية (الدارجة الجزائرية) وتتمظهر اللغة العربية الفصيحة لدى فئة من المثقفين الجزائريين وبأماكن محددة كما هو الحال في المجال الديني والمؤسسات التربوية والإدارية وتستعمل كأداة للتعبير في الملتقيات العلمية والثقافية والآداب المكتوبة، في حين تتمظهر العامية في الاستعمال اليومي، وأكثر استخداماتها في المجالات الخاصة بين الأصدقاء وفي الأوساط الأسرية، وبعض الآداب الشفوية الشعبية كالحكايات والألغاز والأمثال الشعبية. (عفيفي، 1995، ص،104)، وهذه الأخيرة –العامية– هي الأكثر استعمالا من طرف الأغلبية رغم عدم الاعتراف بها رسميا، ولكنها حاضرة في المشهد اللغوي الجزائري.

أما الثنائية اللغوية في الجزائر فيقودنا الحديث عنها إلى التحدث عن اللغة الفرنسية في المقام الأول لما لها من مكانة مهمة في الساحة الثقافية وحضور مميز في الذهنية الجزائرية، لاسيما عند النخبة المثقفة، حيث نجد الثنائية اللغوية (العربية/ الفرنسية) تمارس بقدر من الحرية لا نجد لها مثيلا عند غيرها من الشعوب العربية.

ومعلوم أن الفرنسية انتشرت وسيطرت بوجود الاستعمار الفرنسي لمدة تجاوزت القرن من الزمن وامتدت لجميع مناطق البلاد وبقي تأثيرها قويا بعد الاستقلال، حيث تحتل مكانة مهمة مقارنة بغيرها من اللغات الأجنبية، بل وتوظف على نطاق واسع في التعليم الجامعي للتخصصات العلمية والتقنية وفي وسائل الإعلام المختلفة وتستخدمها فئات المجتمع على نطاق واسع في التواصل الشفهي، وهو ما جعلها تؤثر على اللغة الرسمية وهي العربية، فلا جدال إذن في شيوع وانتشار الثنائية اللغوية، وإن لم تعترف بها الجهات الرسمية

وتعتبر هذه الثنائية اللغوية ظاهرة تاريخية، حتمتها ظروف البلاد سابقا في فترة الانتقال من الاستعمار إلى الاستقلال بغرض الاستفادة منها للوصول إلى المعرفة والعلم والتقنية ومسايرة التطورات الحاصلة آنذاك قصد الخروج من دائرة التخلف.

بيد أننا نرى اليوم أن اللغة الفرنسية تهيمن على القطاعات الحيوية في المجتمع الجزائري فهي لغة الإدارة والمؤسسات الاقتصادية، ناهيك عن فشل تعريب الجامعة الجزائرية، لذلك فالثنائية اللغوية في الجزائر رسخها التعليم وعززتها السياسة ونشرتها وسائل الإعلام بين مختلف الشرائح الاجتماعية.

إن الوضع اللغوي في الجزائر يمكن أن يختصر في القول:" لغات متعددة في خطاب واحد، إنها الميزة الجزائرية".

5. آثار التعدد اللغوي على اللغة والمجتمع

الواضح أنه لا يكاد مجتمع يخلو من التعدد اللغوي، فحتى المجتمعات التي تظهر أحادية اللغة بقوة القانون لا تنفك من الوقوع في أحد مظاهر التعدد اللغوي الذي ينتشر بكثرة اليوم على نطاق واسع ويكون له أثر بارز فيه هذا الأثر قد يكون ايجابيا فيؤدي إلى التفاهم بين المجموعات ومعرفة متزايدة بعضها ببعض يقول الباحث "أوفيليا غارسيا" : (التربية ثنائية اللغة والمتعددة اللغة هي في الحقيقة تربية صحيحة متعددة الثقافة، تتجاوز التعبير عن الأحاسيس الايجابية، لتتح الناس وسيلة حالية وهي الثنائية اللغوية لخلق معرفة وتفاهم كبيرين). كما يمكن استغلاله في محاربة بعض مظاهر التمييز العنصري وعدم المساواة بين المجموعات إضافة لكونه يمنح الطلبة ثنائيي اللغة والمعرفة ايجابيات معرفية متزايدة وتفكيرا خلاقا ومتشبعا جدا ويمكن آن يمنح الفرد وعيا لغويا واسعا.

فالتعدد اللغوي ظاهرة طبيعية وصحية مفيدة في الدول إن اتخذ مسلكا للتطعيم وانفتاح الثقافات الوطنية على الثقافات الأجنبية لتوسيع دائرة التفكير اللغوي بما لا يخلق صراعا مع اللغة الوطنية. (غرسيا، 2004)

فقد كانت الحضارة العربية الإسلامية نموذجا لتوظيف اللغات مثل الفارسية واليونانية وغيرها في عصر التفتح الحضاري، غير أن ما تعانيه الشعوب العربية منذ قرون خلت من تخلف حضاري هو ما أضعف لغتهم لن العلاقة بين نسق اللغة وبنية المجتمع متكاملة وطردية فتخلف أهل العربية في العلم والتقانة والصناعة والثقافة البشرية يحيلها بسبب علاقة التشاكل البنيوي على التخلف عن أكبر لغات العالم العالمة. (عمر، 2016)

وبسبب هذا لم تعد اللغة العربية مثل ما كانت من قبل تكفي لنقل أهلها لأعلى مراتب الحضارة في عصرنا. فإذا نظرنا إلى المجتمع الجزائري وجدناه يتكلم خليطا بين الفرنسية والعربية واللهجات المحلية باختلاف مناطق الوطن، فقد تجد في العائلة الواحدة، المعرب، والمفرنس، والمزدوج اللغة، ومن لا يحسن لا الفصحى ولا اللغة الأجنبية أو يجمع قليلا من الاثنين؛ وليس بمقدور أحد أن يعطي نسبة المتكلمين بهذه اللغة أو تلك

مما تقدم يتضح لنا أن التعدد اللغوي في جزائر اليوم ضرورة يستدعيها الانفتاح على الثقافات الأخرى أخذاً وعطاء" ، لأنها المفتاح الذي يجعلنا نطلع على تجارب الغير ومعتقداتهم و طبائعهم و بالتالي التعرف على قيمهم و مبادئهم من خلال إبداعاتهم في مجالات متعددة. وقديما قيل: تعلم لغة الغير خير من جهلها، لأنها تمنحنا الثقة والأمان وبالتالي التعرف على الطرف الآخر وما يحمل في جعبته من أفكار وقيم. فالذي له لغة واحدة إنسان بسيط قد لا يدرك التنوع أو قيمة التنوع البشري ففي بحث لكوك عن آثار اللغة الثانية في الأولى أكد الباحث أن (الذي يحمل ويعرف أكثر من لغة له فكر مختلف عن الذي يعرف لغة واحدة، لأن الذي يعرف لغتين تتغير طريقة استعماله للغته الأولى وكذا طريقة تفكيره، فبمجرد امتلاك لغة أخرى تبدأ بوادر التغيير تطرأ على المالك سواء على مستوى الاستعمال: استعماله للغته الأم، أو طريقة تفكيره: لأن من شأن كثرة الأنظمة اللغوية أن تهبه قدرات إضافية، وتبلور رؤيته للأشياء وتزيينه لها. وهذه إحدى القيم الهامة التي يستشعرها الإنسان متعدد اللغة. **(Abou, 1962,P3-7)**

المجتمعات لا تحيا ولا يمكنها أن تستمر في حياة هادئة ومثمرة دونما استقبال إشارات التنوع الثقافي الزاهية من الغير، وأن هذا لن يجدي نفعا طالما لم نتعرف على ثقافتنا وهويتنا وأنفسنا كما يجب. فهذه "سوزان بليس" قد أنجزت بحثا مستفيضا سنة 2008 تحدثت فيه عن الهوية والتنوع الثقافي، حيث كان مناسبة لإبراز أهداف هذا الطرح الذي يرمي إلى فهم الذات، وبفهم ثقافة الذات، وجب الانفتاح على ثقافة الغير:(إن فهم وتقييم أنفسنا هي أول خطوة نحو تقييم الآخر، إذا تكون لدينا معنى إيجابيا عن الذات، فإن هذا يسمح لنا أن نكون أكثر انفتاحا ومقبولية للتنوع. وعن طريق استكشاف هويتنا الخاصة وتنوعنا الثقافي، فإن الطلبة يتعلمون كيف يتصلون بهويتهم الثقافية وإرثهم مع هوية وإرث الآخرين في مختلف الأوقات والأماكن. كما أن ندوة اليونسكو **UNESCO**قد اتخذت موقفا منذ بداية القرن الحالي، أكدت فيه في المادة: الأولى من الإعلان الكلي الذي يخص التنوع الثقافي أن (التنوع الثقافي ضروري للبشرية مثل ضرورة التنوع البيولوجي للطبيعة).

زد على هذا ما قد يسببه الانغلاق على لغة واحدة من تدمير للذات والهوية واللغة، هذه الأخيرة قد تعرف بعض الإخفاق من خلال بحث قام به «دفيد كريسطال" D.Cristal أستاذ اللسانيات الذي اقترح أنه (في الوقت الراهن يتم موت أو إخفاق لغة واحدة في المتوسط كل أسبوعين. مشيرا إلى أنه إذا ما استمر موت اللغات بهذه الوتيرة فإنه يتوقع موت 90% من اللغات المتحدث بها حاليا في أفق 2100. فكل هذه الإفادات تصب في قالب واحد وتتفق على موقف مماثل وتدعو إلى طريق لا مفر منه وهو خلق فضاء ملائم ومناسب للتنوع الثقافي داخل المجتمعات، نكون من خلاله قد فهمنا ذواتنا وتعرفنا على هوياتنا وأغلقنا باب تدمير لغاتنا وتأكدنا أن لا محالة من إقرار هذا التنوع الثقافي لأنه يشكل بالنسبة لنا أرضية خصبة لحياة حقيقية نتنفسها ونتوق إليها. ويكفي هنا أن ننبه إلى أن هذا التنوع قد لا يجدي في مجتمعات ما زال مثقفوها وأغلب باحثيها يفكرون في توفير لقمة العيش اليومية ويعانون من التهميش وفرض الذات...وما زالت هذه المجتمعات نفسها

تعاني من نقص كبير على مستويات عدة: صناعية وتكنولوجية وتجارية واقتصادية وسياسية... مما لا يسمح بهذا التنوع الذي يبقى حلما يتسلقه المثقف والحرفي والتاجر...

من هنا تتضح رؤية بناء المجتمعات وفرضية انفتاحها وفق مفهوم تواصلي دقيق، يفيد تلك المجتمعات ويبعث فيها أمل بناء مستقبلها ومحيطها وأفراد عشيرتها. وكل ذلك من خلال ما يستوطن من تعدد لغوي باعتباره اللبنة الحقيقية والأولى نحو هذا البناء والانفتاح على السواء، فكثير من المجتمعات التي عانت الظلم والقهر والاستبداد...استفاقت على منظومة التعدد اللغوي خيارا وحيدا من أجل بناء مجتمعها بناء رصينا. لنأخذ على سبيل المثال اليابان التي انطلقت في تحديث بلادها منذ فترة الإصلاح الميجي بين سنوات **(1868-1911)**، ومنذ ذلك التاريخ بدا العمل بجد ومثابرة واستمرارية بكل تفاني. حيث كانت نظرة اليابانيين جد متطلعة نحو مستقبل أفضل على جميع الأصعدة: سياسيا واقتصاديا وصناعيا ولغويا كذلك، حيث أسهم برنامج تحديث اليابان فيما خصه المسؤولين من نقل لغات المجتمع إلى التوحيد وانفتاحها على لغات أخرى: (إن تاريخ تحديث اليابان هو تاريخ تغيير لغوي. فتوحيد الصيغة اللغوية الأدبية والعامية وتأسيس لغة معيار موحدة في ربوع اليابان وفيما بعد الاستعمار، فهذه كلها مظاهر أو سمات الصعود نحو التحديث في اليابان. كما أن إصلاح اللغة وتطبيق التعليم الإلزامي يعتبران مقياسين فعليين ومكملين، وليس لإحلال محل البنيات العمودية للتواصل في الغالب في المجتمع الإقطاعي عن طريق بنيات أفقية أكثر تلاؤما لمطلب التصنيع وخلق جمهور وطني. (التواب، 1988، ص،165).

وتعد اليابان اليوم من الدول الكبرى والمتقدمة على جميع الأصعدة رغم بنية تضاريسها المتقلبة وكثرة البراكين والزلازل التي تجتاحها. كل ذلك بفضل سياستها اللغوية الناجحة وخلق فرص كثيرة نحو تعدد لغوي راق، واليوم نشاهد الياباني يتحدث لغات متعددة رغم صعوبة لغته: اليابانية والانجليزية والاسبانية والعربية... كما أن الصين التي تجتاح العالم برمته: أسواقه ومعارضه ومهرجاناته...استطاعت أن تتأقلم مع كثير من الثقافات والسياسات والمجتمعات بفعل انفتاحها على لغات أخرى، وفهمها لثقافات الغير وحضارته ونهجه...مع الاحتفاظ بهويتها وقيمها التي ما فتئت تنشرها.

وفي أوروبا وهي خير دليل على اتحاد هذه القارة وتفاهم كثير من دولها وتكسيرهم جل الحواجز التي تقف حجر عثرة أمام تقدمها وازدهارها، وهي في كل ذلك كانت تحث الدول على نهج سياسة التعدد اللغوي باعتبارها السبيل الوحيد لمحو كل العقبات الزمنية والمكانية والتي لا سبيل لتجاوزها من فرض تنوع لساني يسيح في كل أرجاء القارة العجوز. ففي كلمة له بمناسبة إطلاق منبر للمجتمع المدني من أجل تعزيز التعدد اللغوي، تحدث "ليونارد أوربان" عن (استعداد كثير من الجمعيات بتطبيق سياسة التعدد اللغوي في حقول التعليم والثقافة والإعلام. كما أنني أريد أن أتحدث اليوم عن الفوائد وتحديات التنوع اللساني في أوروبا...

وحول الارتباط الهام بين التعدد اللغوي والحوار بين الثقافات والتعاون بين المجتمعات مع التأكيد عن مدى المساعدة التي تقدمها لنا المهارات اللغوية للتغلب على مختلف التغييرات الزمنية التي نعيش فيها.

لقد كان الهدف هو خلق مجتمعات مستدامة على اعتبار أن التعدد اللغوي أضحى خيارا لا رجعة فيه لحل مشكل الحوار بين الثقافات. فالإشكال ليس فيما نتلقاه من ثقافات أو ما يفد علينا منها، فقد كانت تصلنا هذه الثقافات فيما مضى عن طريق الترجمة من المستشرقين، ولكننا أصبحنا بفعل الثنائية اللغوية نترجم لأنفسنا ونتفاعل مع ثقافات غيرنا بلغاتهم. إلا أن الاقتصار على لغة واحدة قد يجعلنا دائما نلجأ لمن يترجم لنا وينقل لنا ثقافات غيرنا من الأمم التي تتحدث بغير الفرنسية بالنسبة لمنطقة المغرب العربي، مما يفوت علينا فرصا أخرى نحو الانجذاب والانفتاح والتأقلم ... فكان لزاما علينا من أجل فك هذه العزلة الانفتاح أكثر على لغات أخرى لنقل ثقافة مبدعيها بأنفسنا دون احتياج لأطراف استشرافيه أو مثيلاتها ممن يشتغلون على هذه الشاكلة.

إن قراءة النصوص بلغة مبدعيها تجعلنا على مستوى التلقي مجددين ومبتكرين ومكتشفين خبايا تلك النصوص وجمالياتها الكامنة وراءها فهم أبعاد جديدة ودواخل قد لا تكون حتى في حسبان من أنجز وكتب وأبدع. وكل ذلك لن يتحقق سوى باللغة الأصلية. وهذه سياسة كثير من دول العالم اليوم من الناطقين بغير العربية فتح شعب في جامعاتهم للغة العربية وبعث وفود من الشباب لمراكز مخصوصة إلى دول عربية قصد تعلم العربية من جذورها.

6. خاتمـــة

أود أن أشير في آخر هذه المقالة إلى أن التعدد اللغوي لم يعد سياسة تعليمية تنتهجها المجتمعات والدول من أجل خلق تنوع ثقافي وحوار بين الثقافات، وإنما تجاوز ذلك إلى مجالات أخرى تخدمه وتسهم في تنميته: من ذلك على سبيل المثال لا الحصر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة والتي تعمل على تقوية طريق التعدد وتنميته بخلق فضاءات للحوار والتعبير والاكتشاف والمسائلة.

فما ينبغي أن نقتنع به هو أن تعلم اللغات حقيقة من الحقائق لا ينبغي تجاهلها. ففي دول أوروبية إذا أراد الشاب تعلم مهنة يدوية عليه أن يتعلم لغة غير لغته الأم. أما في سياستهم التعليمية فيقحمون بتراتبية ومنطق مدروس تعليم اللغات للأطفال، وفي سن مبكرة حتى يدرك الطفل ويميز بين لغته الأم واللغة الرسمية للتعليم واللغة الأجنبية الأولى أو الثانية.

إن موضوع التعدد اللغوي موضوع شائك ومتنوع يحتاج إلى طرق كثير من المجالات المعرفية المرتبطة به من أجل الوقوف على أهدافه وسبل تطبيقه داخل المجتمعات من قبيل: اللسانيات، وعلم النفس اللغوي واللسانيات الاجتماعية، وعلوم التربية، وديداكتيك اللغات... حتى ندرك الكيفية التي يتم بها الربط بين تعليم وتعلم اللغات ومدى الاستفادة من تعدد لغوي في مجالات متعددة تجلب التوازن والانفتاح والابتكار...

7. قائمة المراجع

- الأوزاعي محمد، 2002، التعدد اللغوي انعكاسلته على السطح الاجتماعي، ط1، منشورات كلية الآداب، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب.
- بلفقير عبد العزيز 2008، التعدد اللغوي واللبس الدلالي وأثره على التعلّم www.almothaquaf.com
- عبد التواب رمضان، 1988، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخليجي، القاهر، مصر.
- عفيفي عبد الفتاح، 1995، علم الاجتماع اللغوي دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
- عمر ديدوح، 2006، الصراع اللغوي في الجزائر، (s.d.). Consulté le 04 16, 2018, sur http//www.Almarefh.net .
- غرسيا أوفيليا، 1984، التربية الثنائية اللغة، دليل السوسيو لسانيات، تحرير: فلوريان كولماس، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت.
- القاسمي علي، 2012، التعدد اللغوي والتنمية البشرية، مجلة الممارسات اللغوية، عدد 16، مخبر الممارسات اللغوية في لجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر.
- كالفي لويس جان، 2008، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، مراجعة: سلام بزي حمزة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
- مايكل كلين، 2009، التعدد اللغوي، دليل السوسيو لسانيات، تحرير: فلوريان كولماس، ترجمة خالد الأشهب، وماجدولين النهيبي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
- وليد عناني، وبرهومة عيسى،2007، اللغة العربية وأسئلة العصر، دار الشروق، عمان، الأردن.
- Abou Sélim, 1962, Le bilinguisme arabe Français au Liban ,PUF ; Paris France.
- J.Dubois et autre,1973, Dictionnaire de linguistique, Larousse,Paris, France.